قراءة في كتاب مباحث في اللسانيات لصاحبه الأستاذ أحمد حساني

محمد تحريشي

صدر للأستاذ أحمد حساني كتاب بعنوان مباحث في اللسانيات عن ديوان المطبوعات الجامعية، جويلية 1994. وقد جاء هذا المؤلف ليسد فراغا ملحوظا في المكتبة الجامعية، ذلك أن طلاب الأدب العربي كانوا ومازالوا بحاجة إلى مثل هذه المؤلفات التي تبصرهم، وتقدم لهم المادة في صورة تعليمية تنطلق من الأسس البيداغوجية الحديثة، والتي تحقق التواصل بين الأستاذ وطلابه على أحسن وجه، مستفيدا كثيرا مما تعرضه هذه المباحث اللسانية في وجود علاقة وطيدة بين المرسل والمتلقي، ساعيا إلى مزاوجة النظرية اللسانية العالمية بالرصيد المعرفي للتراث اللساني العربي.

لقد جاء الكتاب في مقدمة ومدخل، وثلاثة مباحث:

فكانت المقدمة عرضا منهجيا لرؤية المؤلف في البحث اللساني، وقد صرح بأنه سعى أساسا إلى التفكير في وضع أرضية أولية لإمكانية وجود نظرية لسانية عربية معاصرة، وذلك بإمتلاك الأدوات العلمية لحقل خصب من حقول المعرفة الإنسانية.

وأما المدخل فقد تناول الإطار النظري للبحث من حيث كونه تعقبا مرحليا للمسار التحولي للنظرية اللسانية العالمية، وقد تدرج معه بدءا من الإسهام الهندي في هذا المجال وصولا إلى مجهودات الدارسين المحدثين، مع التوقف عند بعض المفاهيم اللسانية وتحديدات العلماء، كاشفا عن الأهداف المتوخاة من البحث اللساني.

وكان المبحث الأول خاصا بالدراسة الصوتية للغة، إنطلاقا من أن الفكر الإنساني قد اهتم في فترة مبكرة جدا بالظاهرة الصوتية لتحقيق التواصل بين أفراد المجتمع البشري، ومن ثم فقد تتبع المؤلف أهم المحطات البارزة في المسار التطوري للدراسة الصوتية عبر تاريخ الحضارة الإنسانية وصولا إلى علم الأصوات العام، وعلم الأصوات الوظيفي.

وخصص المبحث الثاني للدراسة التركيبية بوصف الجملة ظاهرة لسانية ذات آلية جوهرية قادرة على توليد عدد لا حصر له من البنى اللسانية، إضافة إلى كونها الرابط الضمني بين التمثيل الصوتي، والتمثيل الدلالي للنظام اللساني، وقد جاء هذا المبحث ليقف عند الدراسة التركيبية التوزيعية والدراسة التركيبية الوظيفية، والدراسة التوليدية والتحويلية.

وكان القسم الثالث من الكتاب خاصا بالمبحث الدلالي انطلاقا من أن اللغة هي نظام من العلامات الدالة التي تغطي مجالا أرحب من المفاهيم التي تريد إلى الخبرة الإنسانية، ومن ثم تعرض هذا المبحث إلى العلامة في التراث، والنظرية السلوكية، فالنظرية السياقية ثم نظرية الحقول الدلالية وختم بالنظرية التفسيرية.

لقد استطاع المؤلف أن يطبع كتابه بخصائص جعلته يرقى إلى مستوى علمي

* أستاذ، جامعة وهران

© جامعة قسنطينة، الجزائر، 1996

رفيع، ومكنته من الوصول إلى نتائج ترفع من مستوى القارئ، وتجعله يقترب بسهولة من الكتاب إلى درجة الألفة والاستئناس، ويمكن إيجاز هذه الجوانب الإيجابية من المؤلف في مايلي:

1 – الجانب المعرفي: لقد جاء الكتاب مفعما بالجانب المعرفي من حيث أن المؤلف قد وقف في الوصول إلى المعارف الضرورية لانجاز هذا الكتاب، فقد تتبع المسار التطوري للنظرية اللسانية من خلال الوقوف عند المحطات الأساسية لاسهامات العلماء انطلاقا من الهنود، ووصولا إلى الطروحات الحديثة، مع الإشارة إلى تقاطع اللسانيات مع مناهج الدراسة الأخرى كالسيميائية، والأنثروبولوجية.

2 – التتبع الدقيق للحقائق العلمية، فقد وفق المؤلف في الوصول إلى الحقائق العلمية وتقديمها في صورة لايجد القارئ صعوبة في إدراكها والإلمام بها، فقد اختار الوسائل المساعدة لذلك، من عرض نظري لاسهامات العلماء، إلى مجال تطبيقي في مبحثين، معتمدا في ذلك على جملة من النصوص العربية التراثية الفصيحة.

3 – الإحاطة الجيدة لحدود الموضوع المدروس، لقد أبان المؤلف عن حسن تبصر، وعن رؤية واضحة للموضوع المدروس، مما جعله متمكنا من المعلومات التي يعرضها، حتى استطاع أن يوجهها خدمة للغرض التربوي الذي وضع من أجله الكتاب، كما استطاع التقرب إلى النص الديني والنص الفلسفي والنص اللغوي في انسجام، وتوافق تامين، كما ناغم بين الإسهام التراثي والإسهام الحداثي في بناء صرح النظرية اللسانية بكل فروعها وأنواعها.

ومع ذلك فيجب إبداء بعض الملاحظات الأساسية من أجل الفائدة العلمية:

1 – لم يكن الكتاب موفقا من الناحية الإخراجية مما يوقع القارئ في كثير من الارتباك والحيرة، فالعناوين متداخلة ولا تمييز بين العناوين الرئيسية، والعناوين الفرعية في كل الكتاب. ففي الصفحة الثانية والأربعين يصادفنا عنوان " مفهوم السيميائية عند دي سوسير"، ثم يليه عنوان " العلامة عند دي سوسير"، وفي الصفحة السادسة والأربعين نجد عنوان " السيميائية عند دي سوسير"، والعناوين كلها بحجم واحد، وقد نحتاج إلى جهد حتى نصل إلى أن العنوان الأول هو عنوان رئيسي، والعناوين كلها بحجم واحد، وقد نحتاج إلى جهد حتى نصل غلى أن العنوان الأول هو عنوان رئيسي، والعنوانين الآخرين هما عنوانان فرعيان.

ويضاف إلى هذا نوعية الخط المختار للكتابة، والتي كانت غير مساعدة للقارئ، بل قد تسبب له ضررا . ذلك أنها لم تأخذ بالوسائل الحديثة التي يستفاد منها في طباعة الكتب، ولا ومن نوعيات الخط التي تجعل الكتابة واضحة ومميزة، والتي تحافظ على قدرة الابصار لدى القارئ. وقد تكون السرعة والتسارع في إنجاز هذا الكتاب وراء هذه الناحية السلبية منه. ومما يؤكد على ذلك، أن لاتناسق بين فهرس الكتاب ومحتوياته فالخاتمة، على سبيل المثال، في الفهرس توجد في الصفحة 186، بينما هي في المحتوى في الصفحة 190.

2 – لقد اهتم المؤلف بالكشف عن تقاطع اللسانيات مع المناهج الحديثة كالسيميائية والأنثروبولوجية، ولكنه فاته أن يتوقف عند سلبيات هذه التقاطعات. ذلك أن المناهج الحديثة

تأخذ من اللسانيات أكثر مما تفيدها. فالمنهج الأنثروبولوجي له سلبيات، إذ أنه يدرس ثقافة الأمم دراسة فوقية استعلائية، وينظر إلى الأمم المدروسة نظرة دونية إنطلاقا من الدارس عارف وأن المدروس جاهل أو متخلف ولا شك أن هذا المنهج عندما يتقاطع مع اللسانيات، فإنه يوجهها بحسب توجهه، وقد يصبح تقويضا لها، فلا بد " من التأكيد أن محاولة الخروج عن الوصفية الموضوعية التي أرستها البنوية، قد بدأت أولا مع أقطاب البنوية أنفسهم، فهاهو بارث، يؤكد أن صرح اللسانيات أصبح يتفكك اليوم من شدة الشبع أو من شدة الجوع، وهذا التقويض للسانيات هو ما أدعوه من جهتي السيميولوجيا " .(1)

ومع ذلك يجب أن تستفيد اللسانيات من هذه المناهج لإثراء أدواتها الإجرائية " وقد حاول دي سوسير، ولاسيما بعض إتباعه في دفاعهم عن الموضوعة القائلة بوجوب دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، خلق انطباع بأن اللغة تشكل نظاما مغلقا على ذاته، وبالتالي لاعلاقة له بثقافة المجتمع ولا بأدبه، فالسوسيرية – إجمالا – لم تعر العلاقات المتبادلة بين اللغة والآداب إلا القليل من اهتمامها ويذكر ل. ف.شيربا فيما بعد أن الناس أخذت تنسى الفيلولوجيا بعد صدور كتاب سوسير " دراسات في اللسانيات العامة " قائلا " كنا نحن اللغويون نحتقر الفيلولوجيين، وكان هذا الموقف بين الفيلولوجية موضة تلك الفترة. ولم تتم عودة اللسانيات إلى الفيلولوجيا إلا تدريجيا، وأدرك الجميع وقتها أن عالم اللسانيا لايمكن إلا أن يكون فيلولوجيا إذ إن أساس الفيلولوجيا هو الفهم الممتاز للنص" .(2)

3 – لقد تتبع المؤلف المسار التاريخي للنظرية اللسانية، إنطلاقا من أن الإسهام الهندي في مجال الدراسات اللسانية كان كبيرا، بل إن الدراسة الهندية كانت قطب الرحى بالنسبة للدراسات الأوروبية اللاحقة. ولكن الأستاذ حساني أهمل مجهود حضارة وادي الرافدين في وضع النظرية اللسانية، والتي ربما تخدم النظرية اللسانية العربية، لأنها من جنس اللغات السامية.

4 - غياب الموقف النقدي للمؤلف المفوم للنظرية اللسانية. يبدو أن الأستاذ حساني لم يهتم بالكشف عن السلبيات النظرية اللسانية، لأن الكشف عن هذه السلبيات دافع إلى أن يكون للطالب موقف نقدي مما يعرض عليه من آراء.

إن التحدث عن الإسهام الإنساني في مجال اللسانيات، على سبيل المثال، لا يأخذ في الحسبان المستوى الفكري لكل لغة، فلابد أن هناك تقاربا وانسجاما بين اللغات الهندو أوروبية، وقد لانجد هذا التناغم إذا تعلق الأمر بمقارنة هذه اللغات باللغات السامية، ومحاولة استثمار نتائج دراسات الأولى أثناء دراسة اللغات السامية. ذلك أن النموذج اللغوي يطرح إشكالا بالنسبة للدراسة اللسانية، فالأساس الفكري لكل لغة يختلف باختلاف الأنماط اللغوية الإنسانية، ولا ريب أن النمط الهندو أوروبي يختلف عن النمط السامي، وهذا ما جعل " الشك يدب في كفاية النموذج اللغوي، فهو مهم في ضبط المنهجيات، لكنه غير كاف في بلوغ التشعبات والزوايا الدقيقة لمنحنيات الخطاب الخصبة " .(3)

ويبدو أن مثل هذا هو الذي دفع فريقا من الباحثين إلى نقد إسهامات بعض العلماء في مجال اللسانيات وتقاطعها مع علوم أخرى. فقد أكد روجيه غارودي أن " اختيار ستراوس لقبائل هندية بدائية للغاية في أمريكا اللتينية، أي مجتمعات تعيد بنيتها إنتاج ذاتها

إلى ما لا نهاية بدون تغيير يذكر، أي مجتمعات هي بمعنى من المعاني بلا تاريخ، وتطبيق النموذج اللغوي عليها لوصف هذه البنية التي تكرر نفسها، لا يعني صحة وتسليما بما تذهب إليه أنثروبولوجية ستراوس، فما ستكون النتائج، أي النتائج التي يفضي إليها منهج ستراوس، إذا ما طبق على مجتمعات ذات إعادة إنتاج موسع نظير المجتمعات التي هي قيد التحول المستمر في بنيتها بالذات بفعل تطور الرأسمالية" (4). إن تطبيق مثل هذا المنهج، حسب غارودي سيبرز إلى السطح المشكلات المتولدة عن التعارض الفعلي بين البنية والتاريخ.

ومع ذلك فقد كانت للمؤلف بعض الآراء الناقدة، كنقده للنظرية السلوكية، ولكن مثل هذا العمل لم يسهم في وضع رؤية نقدية مقومة للنظرية اللسانية عموما .

5 – لقد اضرت الخاتمة بالكتاب، فهي لم تقدم شيئا يذكر، وكان الأجدى الإستغناء عليها، وإذا كان ولابد أن تكون، فمن الأحسن أو توجز فيها كل النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وأن يكون حيز أكبر مما أعطي لها. فلا يعقل أن تكون بصورة مقتضبة لا تعكس جهد المؤلف ولا مزايا الكتاب.

ومع ذلك فإن هذه الملاحظات لاتنقص من قيمة الكتاب شيئا، وإنما انطباعات أولية حول هذا المؤلف، الذي لامحالة أن الطالب سيجد فيه الأنيس في دراسته الجامعية، وخير أنيس في الآنام كتاب.

الهوامش

(1) - درس السيميولوجيا، **رولان بارث، ت. عبد السلام بن عبد العالي**، المغرب، دار توبقال للنشر 1986 ص. 12

(2) - الأدب والعلوم الإنسانية، فريق من الباحثين السوفيات ص. 205

(3) - معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، **عبدالله إبراهيم**، المركز الثقافي العربي ط. 1 بيروت 1990 ص. 28

(4) - البنيوية فلسفة الموت، **روجيه غارودي، جورج طرابيشي**، دار الطليعة 1979 بيروت ص. 33